وظـيـفـة الـتّـلـقّـي فـي إدراك انـسـجـام الـنّـصّ
The Reception Function in Textual Coherence's Perception

وسام نش (أستاذ مساعد قسم "ب")
جامعة الجزائر (2): "أبو القاسم سعد الله"
wissemneche@gmail.com

مُلخّص البحث

هذا المقال يعالج كيفيّة إدراك "الانسجام النصي" (Cohérence textuelle) في عملية "التلقي" (Réception). وقد تناول بعض القضايا المتعلقة بـ"الاتساق" (Cohésion) و"الانسجام" (النصيين)، وعلاقة التلقي بالسياق (Contexte). وأشار إلى العلاقة بين التلقي والانسجام في التراث العربي، وفي الدراسات الحديثة. وخُتِم المقال بعرض نظرية معرفية تحاول تفسير عملية التلقي، وإدراك انسجام النص.

الكلمات المفتاحية: الانسجام؛ الاتساق؛ النص؛ التلقي؛ السياق.

ABSTRACT:

This article treats the textual coherence perception's way in text reception's operation. It tackles some affairs that concern cohesion, coherence, the relation between reception and context. The article will also deal with the way the cognitive theory attempts to interpret the operation of reception and how it contributes in the cohesion of the text.

Key Words: coherence; cohesion; text; reception; context.

إن القضية الكبرى التي تشكل محور لسانيات النص (Linguistique textuelle) بوصفها علما هي ***النصية*** (Textualité). وهي تمثل ركيزة التواصل

اللغوي. ومن بين عوامل تحقق النصية في مُنْتَج لغوي (Produit linguistique) عاملان هما: ***الاتساق*** و***الانسجام***؛ إذ تنشئ الاتساقَ وسائلُ لغوية في مستوى بنية النص السطحية، حيث التجلي الظاهري للعناصر اللغوية، محدثة ترابطا شكليا، غير أن هذا الترابط الشكلي تتحكم فيه علاقات دلالية –مع مؤثراتها التداولية– وهو ما يتضح من تحديد الاتساق بوصفه مفهوما دلاليا[1]. هذه العلاقات تنتمي إلى الجانب الخفي من النص أي إلى بنيته العميقة، وهو مجال الانسجام. وهذا يؤكد عدم كفاية وسائل الاتساق للحكم بالنصية إذا حضرت مجردة من الانسجام. وهذا يعني كون الانسجام "خاصة جوهرية" في النص تضمن له الوحدة والكُلِّيّة.

يمكن القول إنّ الانسجام هو وحدة دلالة النص، وترابطه المعنوي الذي تصنعه تلك العلاقات الدلالية التي يدركها ***المتلقي*** بالفهم (أو التأويل) بصفته عملية ذهنية متفاعلة مع ***سياق*** النص (الداخلي والخارجي). إذًا، كيف يُدرَكُ انسجام النصّ في عملية التّلقّي؟

إن المتلقي هو الذي يصرف اهتمامه «جهةَ العلاقات الخفية التي تنظم النص وتولده»[2]، والتي تكون كامنة في بنية النص العميقة، محاولا فهمها، في إطار عملية ذهنية معقدة، تؤثر فيها "معرفته بالعالم" التي تشمل ثقافته وتجاربه السابقة. وهذا يبين الدور الأساسي الذي يؤديه فهمُ معنى النص ودلالته في الانسجام. فالنص ليس مجموعة من الوحدات اللغوية المتتالية بغير نظام، لكنه تتابع منسجم تقوم بين مكوناته علاقات رابطة تكسبه وحدة وكلية. وهذه الصفة في النص هي نتيجة ما تحقق فيه من الترابط الدلالي الذي هو «علاقة دلالية»[3]، تنشأ بين مضامين الجمل المعنوية، والمعبر عنها بـ القضايا[4] (Propositions) التي تكون في سلسلة تتميز بالتتابع المنظم في النص. ويدل هذا على أن عملية الفهم يتدخل فيها عامل تداولي مُهمّ؛ إنه السياق الذي يُنتَج النص أو يُتَلَقّى فيه، إذ تؤثر معرفة الظروف المحيطة بالنص في طبيعة التلقي ونوعيته ونتيجته، وبخاصة في تعيين مقاصد المتكلم، فيكون الانسجام من هذه الناحية هو ما يكون من علاقة بين «عالَم النص وعالَم الواقع»[5]، وهو ما يدل على وثاقة الصلة بين الدلالة والمجال التداولي.

إذًا، يمكن القول إن الانسجام هو وحدة دلالة النص، وترابطه المعنوي الذي تصنعه تلك ***العلاقات الدلالية*** التي يدركها المتلقي بالفهم والتأويل بصفتهما عملية ذهنية متفاعلة مع سياق النص (الخارجي).

ويستنتج من هذا أن الانسجام شرط أساسي للحكم بالنصية على مُنْتَج لغوي معين؛ فهو معيار تراعى فيه الجوانب الدلالية والتداولية. وهذا ما تدعو لسانيات النص إلى اعتماده في دراسة النص.

وفي موضوع الترابط النصي فقد وصل **دايك Dijk** إلى استنتاج الشرط الأدنى لتعلق القضايا المعبر عنها في متتالية الجمل، ويُعَيِّنُه بكونه الارتباط بموضوع النص (أو الخطاب)، أي أن يكون الموضوع واحدا[6]، فيحقق الترابط الدلالي الذي هو شرط انسجام النص، هذا الذي تحققه تلك "العلاقات الدلالية" التي هي وجود علاقات بين معاني الجمل (التي تكوِّن النص) ومراجِعِها.

يتحدد مفهوم موضوع الخطاب بشكل عام عند دايك بكونه تمثيل دلالي، وهو ليس تعيينا مجردا لمجموعة المعلومات الممكنة من النص، بل يستلزم قضية مخصوصة تكون مستنتجة من ضم مجموعة قضايا معبر عنها في متتالية جمل؛ أي تنتج عنه بنية كبرى.

إذًا، البنية الدلالية الكبرى تكون معبِّرة عن معنى النص ومضمونه الإجمالي في مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية، وهذا يعني أن هذه القضايا تشكل وحدة دلالية في مستوى أكثر عمومية[7].

ويتم الوصول إلى البنية الدلالية الكبرى عبر عمليات تسمى القواعد الكبرى. وهي:

1 . الحذف: حذف أيّ قضية أو معلومة غير مهمة في تفسير قضايا أخرى في النص.

2 . الاختيار: الإبقاء الانتقائي على أيّ قضية تحمل أهمية دلالية في تأويل القضايا الأخرى.

3 . التعميم: تعويض قضية واحدة من مجموعة قضايا تستلزمها مفهوميا.

4 . التركيب أو الإدماج (الدمج): تعويض قضية من مجموعة قضايا تعبر عن مفهومها العام.

إذًا، يمكن كشف حدث في نص معين واتخاذه موضوعا بمساعدة القضايا التي يتضمنها، مثل:

"ذهبت إلى المحطة"، "اشتريت بطاقة"..."صعدت القطار". ويمكن لهذا الحدث أن يعرض على مستوى عام أكثر في قضية مثل: "قمت برحلة في القطار"، وهي تمثل موضوعا لقصة مفصلة عن رحلة في القطار، وقد غابت في هذه البنية الكبرى التفاصيل جميعها، لكن بقيت فيها المعلومة الأكثر أهمية والأكثر توافقا[8] (مع مضمون النص).

وبهذا يكون موضوع الخطاب اختزالا منظما للمعلومات الدلالية[9] يقاس به انسجام الخطاب، أي إن إمكانية اكتشاف موضوع للنص دليل على تماسكه وانسجامه، وما البنية الدلالية الكبرى إلا تصور للترابط الكلي للنص[10].

إن البنية الكبرى بصفتها تمثيلا لموضوع النص ليست شيئا معطى حتى وإن كانت هناك مؤشرات على وجود هذه البنية، فهي مفهوم مجرد حدسي[11]. يصل إليه المتلقي بانتقاء العناصر المهمة في النص، استنادا على ما يوظفه من معارف توجهها اهتماماته وهدفه المتوخى من النص. وهذا ما يفسر احتمالية اختلاف البنية الكبرى من شخص لآخر مع وجود الاتفاق النسبي في مضمونها بين المتلقين[12].

إن المعلومات والأحداث التي تبني موضوع الخطاب تترابط فيما بينها بعلاقات دلالية تعمل على إحداث الترابط الدلالي، وإضفاء صفة الانسجام على النص. لذلك نقدم تحليلا قام به **دايك** لأحد المقاطع من قصة "بوليسية"، يتجلى فيها دور مثل هذه العلاقات في التماسك، مثال[13]:

" دخلت **كلاير راسل** إلى مكتب الـ (Clarion) في الصباح التالي يملأها الإحساس بالتعب والكآبة، ذهبت مباشرة إلى غرفة عملها، نزعت قبعتها، زينت وجهها ... ثم جلست إلى منضدتها. كان بريدها مشتتا ومنشفتها ناصعة البياض، ومحبرتها مليئة بالمداد، لكنها لم ترغب في العمل".

يمكن القول إن أهم العلاقات التي ضَمِنَت لهذا المقطع النصي "الانسجام"، هي[14]:

. **وحدة (أو اتحاد) الهوية الشخصية؛ (علاقة تطابق):** الشخصية المتحدث عنها "**كلاير راسل**" تسجل حضورها على طول المقطع بالضمير المستتر (هي) المتضمن في الأفعال التي قامت بها (دخلت، ذهبت، ...).

. **علاقات التضمن والانتماء:** وتشمل هنا "علاقة الجزء . الكل": مثل أن غرفة العمل جزء من مبنى المكتب، والمنضدة جزء من المكتب، والوجه جزء من الشخص. وكذلك "علاقة الملكية": كالقبعة والمحبرة اللتين تملكهما هذه الشخصية.

إذًا، الأشياء الموجودة في هذا المقطع تدور حول مفهوميْن: "الكائن: الإنسان؛ (المرأة)"، و"المكتب".

إن مثل هذه العلاقات[15] لا يمكن أن يقوم عليها انسجام إن لم يتم النظر إليها على أساس ***الحالة السوية الاعتيادية للعوالم***، وهي شرط معرفي يحكم ضروب توقعنا بشأن البنيات الدلالية للخطاب، حيث تنتظم فيها معرفتنا حول بنية العالم، وترتيبه ومسار الأحداث. ولهذا نجد في المقطع حرف الاستدراك "لكن"، منبها إلى حالة غير عادية هي "عدم الرغبة في العمل"، في عالم هذا المكتب الذي نجد ظروفه مناسبة للعمل.

يمكن اكتشاف علاقة أخرى أسهمت في تماسك هذا المقطع هي "علاقة السبب والنتيجة" (أو العلة والمعلول)؛ فبالنسبة لمسألة انصراف هذه الشخصية عن العمل، فهي تعد نتيجة للسبب المتمثل في إحساسها بالتعب والكآبة، فبهذه العلاقة يمكن تبرير الحالة التي تظهر غير اعتيادية في عالم هذا المكتب الذي نراه سويًّا وعاديا.

وبذلك فإن ***الحالة العادية المفترضة للعالم***، لها علاقة بمفهوم ***الإطار*** الذي تجتمع فيه معرفتنا حول شيء ما، والأحداث الممكنة الوقوع التي تكون مرتبطة به؛ فكل حدث يكون غير مألوف لدينا ويتعارض مع المحيط السياقي لـ"المكتب" أي لـ "إطار المكتب" يكون غير مقبول.

لقد تبين لنا مما سبق دور العلاقات الدلالية في انسجام النص، والمقصود من هذه العلاقات هو وجود علاقات بين معاني الجمل (المكونة للنص) ومراجعها. وإن ما يكفل للأحداث ارتباطها في ظل احتمالية حدوثها هو انتماؤها إلى ***العالم الممكن*** الذي تبنيه انطلاقا من معرفتنا التي تشكلت من معايشة أحداث الواقع التاريخي لنا[16].

وعليه يمكن أن نستنتج من هذا أن العلاقات الدلالية تستند على مبادئ معرفية عند المتلقي، استمدها من تفاعله مع العالم الخارجي؛ وهذا يعني ارتباط إنشاء العلاقات الدلالية واكتشافها بأمور تداولية تتعلق بعملية التلقي والمعطيات السياقية.

1- التلقي والسياق:

إن فكرة ارتباط النص بعملية التواصل، تفرض علينا جعل مُنتِج النص -متكلما أو كاتبا- ومتلقيه -مستمعا أو قارئا- الأساس في هذه العملية كما فعل ذلك **براون Brown** و**يول Yule** في كتابهما (تحليل الخطاب)[17]. هذه العملية لا تقوم دون الأطراف المساهمة فيها؛ فمبدئيا يصنع مُنتِج النص موضوع هذا النص، ويملك الافتراضات المسبقة أيضا، والمتلقي يؤوِّل ويستدل للوصول إلى مقاصد المنتج. فلا يتسنى فهم الخطاب وتأويله إلا بوضعه في سياقه التواصلي زمانا ومكانا ومشاركين ومقاما[18].

وهذا يقتضي أن أية دراسة لانسجام النص تكون ناقصة بمعزل عن عناصر عملية التواصل، وقضاياها المتعلقة بالسياق والتلقي، باعتبار كون ميزة لسانيات النص هي الشمولية في دراسة الظاهرة النصية، وتناولها من جوانبها جميعا.

*** مفهوم السياق (Contexte):**

إن تتبع مفهوم السياق عند الدارسين يكشف لنا تنوعا في التصورات بحسب انتماءات هؤلاء. ومع ذلك يمكن الإجماع على أن السياق هو «كل ما يتعلق بأحوال المتتالية اللغوية في ظروف استعمالها داخل النص وخارجه»[19]. ومن هذا نتمكن مبدئيا وبشكل عام من التمييز بين صنفين من السياق: ***السياق الداخلي؛ اللغوي*** (Co-texte)، و***السياق الخارجي؛ غير اللغوي*** (Contexte de situation).

أ) . السياق الداخلي (اللغوي):

هو مجموعة الوحدات اللغوية التي تسبق أو تلي وحدة لغوية معينة. أو هو العلاقات الداخلية المتحكمة في البنية التركيبية للوحدات[20].

ويشمل ***السياق اللغوي*** عند **فيرث Firth** جملة المكونات الصوتية والصرفية والتركيبية والعلاقات بينها، بل حتى الظواهر الإيقاعية كالنبر والتنغيم، مع المعاني كلها التي تقترن بهذا المجموع وما ينتج عن كل هذا من الدلالة[21]. وهكذا يتشكل سياق النص من العلاقة الكلية الرابطة بين الكلمات والجمل في النص[22].

ومن هنا يتضح لنا دور السياق اللغوي في تحديد دلالة الكلمة في النص، بل الدلالة الكلية للنص كاملا؛ حيث يتعلق تفسير جملة فيه ويرتكز على دلالة أو معنى جمل أخرى منه[23]. لذلك نفهم عناية **فيرث** بالسياق اللغوي وعلاقته بالمعنى، إذ نظر إليه كأداة أو أسلوب يعتمده اللساني لوصف صياغة المعنى[24].

ب) . السياق الخارجي (غير اللغوي)[25]:

هو ذلك الإطار العام الخارجي الذي يلف إنتاج الخطاب من ظروف وملابسات[26]، وهو كذلك يتألف من مجموعة من العناصر وفق **هايمز Hymes** هي: المرسل –متكلما أو كاتبا– والمتلقي –مستمعا أو قارئا– مع أحوالهما وثقافتهما (ومع ما يحتمل أنه يرافقهما حال الكلام من حركات وتعابير الوجه وإشارات ونحو ذلك)، والإطار المكاني والزماني للحدث التواصلي (وما يمكن أن يوجد من الناس الحاضرين)، والموضوع ونوع الخطاب والهدف من الخطاب، والقناة واللغة المستعملة، والقوانين المتحكمة في عملية إنتاج الخطاب[27].

وبهذا يكون السياق غير اللغوي مجموعة من الشروط الاجتماعية التي يهتم بها من أجل دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي. فهذا النوع من السياق يشكل سياقا اجتماعيا لاستعمال اللغة[28]. ولذلك أكد **فيرث** على الترابط العضوي بين اللغة والمحيط الاجتماعي؛ لأن قدرة الكلام على أداء وظائفه التواصلية، أي تحقيق الإفهام ومنه الفهم يتطلب وضع هذا الكلام في السياق

الاجتماعي[29]. فهو الذي يزودنا بالمعطيات التي نحتاج إليها لفهم ما يقال وإعطائه قيمته وتعيين المقاصد منه، ومن هذا ندرك أهمية السياق[30].

إن أهمية السياق بالنسبة إلى النص، تعود إلى ذلك الارتباط الوثيق بينه وبين هذا السياق الذي يكون كما هو واضح السبب في إيجاده، حتى في «طريقة تشكله على مستوى اللفظ والدلالة»[31]. حتى إن المعرفة بالسياق تسهم في توقع ما سيقال كما أوضح ذلك **هاليداي Halliday**[32]. ولهذا يهتم التحليل التداولي بعلاقة النص بالسياق، فتحديد ***أفعال الكلام*** (Actes du langage) يقتضي تعيين السياق الاجتماعي والثقافي الذي تتحقق فيه. وهو يعد كذلك –إذا كان مناسبا– شرطا لتشكل فعل كلامي معين، وإعطائه هويته المميزة وإمداده بالقوة والشرعية[33] للتأثير في المتلقي أحد عناصر السياق. وهذه العملية التفاعلية فيما بين النص والسياق تبين أن اتجاه التأثير ليس أحادي الجانب بل إنه متبادل بينهما.

إن من الفوائد التي يكتسبها النص في السياق هي تخليص هذا النص من التفاصيل الكثيرة، وسد الثغرات التي سببها ***الحذف*** فيه، فيضمن انسجامه؛ إذ يصير "الحذف" في هذه الحال أمرا طبيعيا في الإيجاز لأمور تداولية، ومنها اعتبار السياق[34].

وكما هو معروف فإشارات المتكلمين وإيماءاتهم تعين النص على توضيح المعنى وتقويته. ثم إن ***الإحالة المقامية*** تستمد مرجعيتها من السياق؛ حيث تتحدد دلالة الضمائر وكذلك سائر الإشاريات (Déictiques) والمبهمات الأخرى، المسماة وحدات فارغة التي لا تمتلئ بالمعنى إلا بالنظر إلى سياقها الذي وردت فيه[35].

إن أهمية الوظيفة الدلالية التي يقوم بها السياق حين يشكل معنى النص، ويفتح مغاليقه، تستلزم أن يكون النص ملائما للسياق الذي يرد فيه لكي يتحقق له الانسجام –سواء في ذاته أو مع سياقه– ويكون مقبولا. فلا تستقيم نصية قطعة لغوية إلا بانسجامها، وهذا يحدث بإدراج النص ضمن إطار سياقي[36]. ولهذا جعل **دي بوجراند De Beaugrande** ارتباط النص بالسياق مع مناسبته له من مقومات النصية[37].

ولبيان القيمة الدلالية للسياق التي تعمل على إكساب النص نصيته، والتي تؤدي دورا في فهم المتلقي للنص، والحكم بانسجامه نسوق مثالا أورده **براون ويول**[38]، وننظر إليه مجردا من سياقه:

- (Quashed insects don't bite mad mental rule.)

- (الحشرات المسحوقة (أو الحقيرة) لا تلدغ قانون مريض العقل (المجنون)).

إذًا، برغم كون كلمات هذا النص معروفة المعنى عند المتلقي، إلا أن تأليفها على هذا الشكل لا يُحصِّل أية دلالة لديه بمعزل عن سياقها. وعند إدراج هذا الخطاب في سياقه الزماني والمكاني، مع تخصيص المرسل والمتلقي، يتمكن الفرد العارف بثقافة هذه البيئة –عند تلقي هذا الخطاب– من تأويله كتحذير من عصابة (mental Mad) إلى عصابة (The insect)[39].

يستنتج من هذا أن "تسييق" النص (أي النظر إليه في سياقه) يوجه الفهم ليكون سليما، وكذلك يستبعد التأويلات الأخرى ليستقر على واحد منها، يكون هو المقصود.

إن التعامل مع المثال السابق كشف لنا بالإضافة إلى دور السياق في التأويل، أمرا آخر له قدر كبير من الأهمية في تأويل النص، والوقوف على انسجامه؛ إنه دور المتلقي في ذلك، ومعرفته بالعالم.

2- التلقي والانسجام:

الدراسات اللغوية العربية التراثية فيها جهود قيِّمة حول العلاقة بين التلقي والانسجام؛ أي دور المتلقي في الحكم على النص في قضية الانسجام. وذلك في تخصصات علمية متنوعة، أهمها "البلاغة" و"النحو" (مبحث الفصل والوصل، ونظرية النظم عند **عبد القاهر الجرجاني**)، ومجال "علوم القرآن والتفسير" (علم المناسبة)، و"النقد الأدبيّ".

وفي الدراسات الحديثة يذهب **براون** و **يول** إلى كون المتلقي هو الحَكَم في مسألة الانسجام؛ فهما لا ينظران إلى انسجام النص كشيء معطى وموجود يتم العثور عليه في النص، بل كشيء يُبنى؛ فالنص في –مذهبهما– لا يتصف

بالانسجام أو عدمه، بصفة ذلك خاصة ذاتية يكون هو "المسؤول" عنها باستقلال عن المتلقي، بل إن المتلقي هو الذي يحكم بانسجام النص أو بعدم انسجامه، وهذا يقتضي أن النص يستمد انسجامه من تأويل المتلقي وفهمه فقط[40].

ولإثبات صحة رأيهما قدما أحد النصوص التي تفتقر إلى الروابط الشكلية، ومع ذلك يستطيع المتلقي فهمه وتأويله، أي إدراكه نصا منسجما برغم ما يظهر عليه من تفكك، وهو الآتي:

– "مناظرة إبستيمية: الثلاثاء 3 يونيه. 2. ز. ستيف هارلو (شعبة اللسانيات، جامعة يورك)".

عند استعانة المتلقي بالسياق سيعرف أن هذا النص هو إعلان في إحدى الجامعات، ومع أنه جاء بصيغة مختصرة كثيرًا، لكن المتلقي لا يعجز عن بناء انسجامه، يساعده في ذلك ما يوحيه تجاور العبارات من ترابط، والافتراض المبدئي المسبق أنه منسجم، فيشرع في كشف العلاقات التي تحقق ذلك والوصول إلى مقاصد النص. فالنظر إلى النص في سياقه يوجه الفهم ليكون سليما، وكذلك يستبعد التأويلات الأخرى ليستقر على واحد منها، يكون هو المقصود. وفي هذا تظهر قيمة السياق ووظيفته الدلاليّتان.

إلى جانب السياق يوجد أمر آخر يعد المرتكز الأساسي الذي يعتمده المتلقي في فهم النص، وإدراكه ككل منسجم؛ وهو تجاربه السابقة وخبراته، ومجمل معارفه بما يتصل بمعرفته العالم، وتتضمنه معرفته الموسوعية[41]. إذ إن ما يملكه المتلقي من معلومات مخزنة في ذاكرته تمثل "معرفة خلفية وسابقة" تمكنه من مواجهة النص بها، فيختار منها ما يتطلبه فهم هذا النص، وهو ما يقتضي أن هذه المعرفة مستقرة في ذهن المتلقي بطريقة منظمة. ولهذا نجد من التخصصات التي قدمت محاولات تفسير عمليات تنظيم المعرفة، وتنشيطها في تلقي النصوص: مجال "الذكاء الاصطناعي" الذي استعمل مفهوم "الإطار" ومفهوم "المدونة"، أما "علم النفس المعرفي" فاستخدم مفهوم "السيناريو" و مفهوم "الخطاطة". ويمكن عرضها كالآتي[42]:

– **الأُطُر**: تخزن المعرفة في الذاكرة في شكل بنيات تسمى واحدتها إطارا، وهو يمثل وضعية جاهزة، تشمل مجموعة من العناصر والعلاقات المتلازمة يتم استدعاؤها عند مواجهة وضعية معينة. وقد يحصل تكييف هذا الإطار مع هذا الواقع بتغيير التفاصيل بحسب الضرورة؛ فتلقي نص فيه كلمة "منزل" مثلا، يحرك لدى المتلقي "إطار المنزل" بمكوناته جميعها من أبواب وجدران...إلخ.

– **المدونات**: المدونة تتضمن متتالية معيارية من الأحداث تصف وضعية معينة. إذ يجري فهم النص باعتماد مفهوم "المدونة" بتمثيل معاني الجمل كمفاهيم بينها علاقات، تشكل شبكة على أساس التبعية المفهومية. حيث يمكِّن الاستدلال من التوصل إلى حدث غير مذكور استنادا على المعرفة بالعالم، كما تسهم المقدرة على التوقع بشكل كبير في ذلك، وعلى هذا الأساس يبنى الفهم.

– **السيناريوهات**: "السيناريو" مجموعة عناصر (أشياء أو أحداث) مترابطة تتعلق بوضعية معينة، وهي جاهزة عند المتلقي ينشطها عند مصادفته حالة مشابهة؛ عند استقبال نص حول "الذهاب إلى المطعم" مثلا، فالمتلقي على علم بوجود الموائد، الكراسي، النادل، ونحو ذلك. انطلاقا من "سيناريو المطعم" الجاهز عنده. ولكن لمُنْتِج النص تأثيرا في نجاح الفهم المؤسس على "السيناريو" أو إخفاقه، ذلك بأن الأمر يتعلق بشدة فاعليته في تحريك "السيناريو" الملائم وضعية معينة.

– **الخطاطة**: يقترح **براون** و**يول** النظر إلى الخطاطات بصفتها معرفة خلفية منظمة تقودنا إلى توقع مظاهر في تأويلنا النص، بدل النظر إليها كقيود حتمية على كيفية وجوب تأويله. ومن أبرز العوامل المتحكمة بتأثير الخطاطات على الفهم والتأويل عاملان هما: اختلاف ثقافة المتلقين، والجنس الذي ينتمون إليه، والاهتمامات التي يدفعهم إليها.

إن دور مثل هذه العمليات في تنظيم المعرفة يتجلى في تيسير فهم النص، ومنه الحكم بانسجامه، ولهذا نتيجة إيجابية في حفظ النصوص وتذكرها[43].

3- عملية التلقي وسيرورة الفهم والتأويل:

إن استقبال النصوص خاصة ذهنية بالأساس لدى المتلقي، وهذه العملية تنتمي إلى المجال الإدراكي المعرفي، ولعل من أهم النظريات التي اتخذت طابعا معرفيا نظرية **سبربر Sperber** و**ولسنWilson**، المعروفة بـ" ***نظرية المناسبة*** (أو الحصافة، الملاءمة)"[44] (Théorie de la pertinence). وقد سعت إلى تقديم وصف للسيرورة التأويلية التداولية، بصفتها مجموعة من العمليات والإجراءات التي يقوم بها المتلقي، بطريقة خفية وحتى غير واعية للوصول إلى فهم الخطاب ومقاصده.

يذهب **سبربر** و**ولسن** إلى كون التأويل الأَوَّلي الذي يقوم به مستقبِل القول عند التلقي يتعلق بالدلالة اللغوية لما يتلقاه، وببنيته العميقة. وهو يتحقق في "صيغة منطقية" تتكون من سلسلة منتظمة من المفاهيم التي تقابل المكونات اللغوية لهذا القول. وهذه المفاهيم تُنشِّط مجموعة من المعلومات المرتبطة معها في ذهن المتلقي. أما عن السياق الذي تتم فيه معالجة القول، فإن المعلومات التي تشكله تُستمد من المعارف الموسوعية المخزونة في ذاكرة المتلقي التي تثيرها مفاهيم الصيغة المنطقية، وكذلك من المعطيات المدرَكة من المقام أو المحيط المادي، ومن تلك المعطيات المستقاة من تأويل الأقوال السابقة. وهذا يعني كون السياق عندهما ليس معطى دفعة واحدة، بل يتشكل قولا بعد قول، إذ تتعدل النتائج القديمة تأثرا بالأقوال اللاحقة، وبالمعلومات الجديدة، وهذا يدل على أن هذا السياق يملك خاصة ***الانفتاح***. وبهذا يمكن أن نفهم ذلك التأثير الدلالي الذي تحدثه مكونات النص بعضها في بعض، كتأثير معطيات تأويل الجملة السابقة في تأويل اللاحقة، وتعديل الجملة اللاحقة فهمَ الجملة السابقة. ومن هذا كله يتبين لنا دور السياق اللغوي وتفاعله مع السياق الخارجي في دلالة النص[45].

وبهذا فإن مجموع الصيغة المنطقية مع السياق –بالمفهوم الذي قدمه له **سبربر** و**ولسن**– يشكل مقدمات تستخدم في العمليات الاستدلالية التي يتم بها تأويل الأقوال. وتنتمي هذه المقدمات إلى المعرفة الموسوعية؛ أي مجموع المعطيات التي

يُحصِّلها الفرد حول الكون، وتتدرج في محيطه المعرفي الذي هو ما يعرفه وما يمكن أن يعرفه.

ويتميز السياق بطابع انتقائي؛ فالمعلومات التي تشكله هي التي يكون لها حظ أوفر للحكم على قول ما بكونه مناسبا (أو ملائما)، أو منسجما مع غيره. وعند الوصول إلى الفهم وتعيين مقصد الخطاب، تتوقف العملية الاستدلالية التأويلية.

ومن الفوائد التي قدمتها نظرية **سبربر** و**ولسن** هو تبيينها أن العملية في الفهم يتم فيها الانطلاق من مقدمة من أجل استنتاج النتيجة التأويلية، تكون محكومة بـ***مبدإ المناسبة*** الذي يستعمله المتلقي بغير وعي فيها. ويدور هذا المبدأ حول افتراض المتلقي وجودَ قيمة إبلاغية دائما في الأقوال (وفي الأعمال التواصلية الإشارية كلها) تناسب السياق الذي وردت فيه، وهو ما يدفعه لإكسابها الدلالة. وهذا الأمر يسهِّل على المتلقي محاولة بناء انسجام النصوص التي يظهر عليها التفكك، وهو ما يوصله إلى الحكم بانسجامها في كثير من الأحيان.

ونجد من المبادئ التي تحدد كيفية الفهم، ويرتكز عليها الانسجام: ***مبدأ القياس*** و***مبدأ الفهم المحلي***، اللّذين بيّنهما **براون** و**يول**[46]؛ إذ يعتمد فهم النصوص "مبدأ القياس" حيث يكون التعامل معها قياسا على التجارب السابقة مع نصوص مشابهة، وبهذا يسهُل على المتلقي الوصول إلى فهم النص والشعور بانسجامه[47]. وهو ما يبرر لنا –أيضا– قيمة "التجربة السابقة" في عملية الفهم.

وأما مبدأ "الفهم المحلي" فيعمل به المتلقي في عدم إنشاء سياق أكبر مما يحتاجه للوصول إلى فهم معين للنص[48]، وعلى هذا الأساس يعد هذا المبدأ تقييدا للطاقة التأويلية لاستبعاد التأويل غير المنسجم مع المعلومات الحاضرة في الخطاب[49].

يتضح لنا إذًا أن عملية التلقي ذات طبيعة تفاعلية مَرِنة، قابلة التأثر بالمعطيات الجديدة، إضافة إلى ما ترتكز عليه من معرفة سابقة لدى المتلقي، يوظفها في هذه العملية. لهذا يُنظر إلى الانسجام من هذه الزاوية بصفته نتيجة فاعلية التلقي عند مستقبِل النص.

لقد عالج هذا المقال كيفية إدراك الانسجام النصي في عملية التلقي. وخلاصة ما عرضناه حول هذه المسألة، أن قضية الانسجام في النص وليدة عوامل مختلفة، لكن بعضها متعلق ببعض؛ فبقدر ما يكون الانسجام ناتجا من ترابط المضمون المعنوي، والعلاقات الدلالية الموظفة في بناء النص، بقدر ما يكون–أيضًا– نتيجة فاعلية المتلقي في كشف ذلك، وتقبله وإعادة بنائه النص المفكك ظاهريا. فالانسجام شرط أساس للحكم بـ"النصية" على مُنتَج لغويّ، فهو معيار تراعى فيه الجوانب الدلالية والتداولية في مجال لسانيات النص. وعملية التّلقّي، هي التي تحقق التفاعل بين هذه الجوانب، وبهذا تظهر وظيفة التلقي في إدراك انسجام النص.

الهوامش:

1 كما بيّنه **هاليداي** و**رقية حسن**. ينظر:
M.A.K. Halliday & Ruqaiya Hasan, Cohesion in English, Longman, London, 1976, P 04.

2 محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2006، ص 16–17.

3 المرجع نفسه، ص 31.

4 تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت–الدار البيضاء، (د.ط)، 2000، ص74.

5 محمد مفتاح، التشابه والاختلاف؛ نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 1999، ص 35.

6 حول موضوع الخطاب عند دايك، ينظر: تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 82، 80، 190–191.

7 حول البنية الكبرى وقواعدها، ينظر: تون أ. فان دايك، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط01، 2004، ص 75،81–85.

8 المرجع نفسه، ص 159.

9 تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 185.

10 تون أ. فان دايك، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ص 75.

11 محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 46.

12 تون أ. فان دايك، "النص: بنى ووظائف؛ مدخل أولي إلى علم النص"، ترجمة: منذر عياشي، في كتاب (العلاماتية وعلم النص)، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 2004، ص 159–160.

13 ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 34.

14 تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 143–144.

15 حول هذه العلاقات، ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 144–145.

16 تون أ. فان دايك، "النص: بنى ووظائف؛ مدخل أولي إلى علم النص"، ترجمة: منذر عياشي، في كتاب (العلاماتية وعلم النص)، ص 156.

17 وكتابهما هو: G. Brown & G. Yule, Discourse Analysis, C.U.P., London, 1983.

18 محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 48–49.

19 جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص؛ دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي، الرياض، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 2009، ص 400.

20 الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية؛ دراسة تحليلية ابستيمولوجية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، (د.ط)، 2001، ص 202.

21 إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط01، 1427هـ/2007م، ص 29–30.

22 مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت إلى النص؛ نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط01، 2002، ص 72.

23 تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 19.

24 مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت إلى النص؛ نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، ص 70-71.

25 عن المقابلات العربية الحديثة لهذا المصطلح، نجد منها: السياق المقامي، والسياق الحالي، وكذلك سياق الموقف.

26 عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب؛ مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس (ليبيا)، ط01، مارس 2004، ص 06، 45.

27 D. Maingueneau, Les termes clés de l'analyse de discours, édition du seuil, Paris, Février 2002, P 22.

وينظر: ليندة قياس، لسانيات النص؛ النظرية والتطبيق "مقامات الهمذاني أنموذجا"، مكتبة الآداب، القاهرة، ط01، 1430هـ/2009م، ص 186.

28 الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية؛ دراسة تحليلية ابستيمولوجية، ص 202.

29 إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ص 28، 30.

30 فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.ط)، (د.ت)، ص 09.

31 جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص؛ دراسة لسانية نصية، ص 405.

32 محمود أحمد نحلة، علم اللغة النظامي؛ مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط01، 2008، ص 61.

33 ينظر: تون أ. فان دايك: "النص: بنى ووظائف؛ مدخل أولي إلى علم النص"، ترجمة: منذر عياشي، في كتاب (العلاماتية وعلم النص)، ص 170-174، 182-191.

34 تون أ. فان دايك، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 159.

35 براون ج. وب. يول ج.، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1418هـ/1997م، ص 35. وينظر: أحمد عفيفي، نحو النص؛ اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط01، 2001، ص 50.

36 ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، " قراءة في اللسانيات النصية؛ (مبادئ في اللسانيات النصية) جان ميشال آدام "، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،ع 12، شعبان 1418هـ/ديسمبر1997م، ص 118.

37 ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط01، 1418هـ/1998م، ص 104.

38 ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 54.

39 ينظر: المرجع نفسه، ص 54-55.

40 ينظر: G. Brown & G. Yule, Discourse Analysis, C.U.P., London, 1983, P 244.

41 كما وُظفت لفهم نص إعلان الجامعة الذي قدمه **براون ويول**.

42 حول هذه المفاهيم، ينظر: G. Brown & G. Yule, Discourse Analysis, P 238-248.

43 روبرت دي بوجراند، المرجع نفسه، ص 373-374، 476.

44 حول هذه النظرية ينظر: آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف الزيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط01، يوليو 2003، ص 76-88.

45 ومن هنا نلحظ اختلاف الفهم بين المكتوب والمنطوق، غالبا بحسب مراعاة العناصر التفاعلية ومن أهمها المقام (أو السياق). وينظر المقال الذي تناول السياق في نظرية المناسبة (الحصافة)، وهو لـ: مفتاح بن عروس، " السياق وتأويل الأقوال في نظرية الحصافة "، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر (2) "أبو القاسم سعد الله"،ع 21، ماي 2014م/1435هـ، ص 135- 169.

46 ينظر: G. Brown & G. Yule , Discourse Analysis, P 58-67.

47 جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النص؛ دراسة لسانية نصية، ص 517.

48 ج. براون و ب. يول، تحليل الخطاب، ص 71.

49 محمد خطابي، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 57.

قائمة المصادر والمراجع:

- باللغة العربية:

1. أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.ط)، (د.ت).
2. براون، ج. و يول، ب.، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، 1418هـ/1997م.
3. بن عبد الكريم، جمعان، إشكالات النص؛ دراسة لسانية نصية، النادي الأدبي، الرياض، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 2009.
4. بن عروس، مفتاح، " السيـاق وتأويل الأقـوال في نظرية الحصافة "، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر (2) "أبو القاسم سعد الله"،ع 21، ماي 1435هـ /2014 م.
5. خطابي، محمد، لسانيات النص؛ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط02، 2006.
6. خليل، إبراهيم، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط01، 1427هـ/2007م.
7. دايك، تون أ. فان، علم النص؛ مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ط01، 2004.
8. دايك، تون أ. فان، "النص: بنى ووظائف؛ مدخل أولي إلى علم النص"، ترجمة: منذر عياشي، في كتاب (العلاماتية وعلم النص)، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 2004.
9. دايك، تون أ. فان، النص والسياق؛ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت–الدار البيضاء، (د.ط)، 2000.
10. دبة، الطيب، مبادئ اللسانيات البنوية؛ دراسة تحليلية ابستيمولوجية، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، الجزائر، (د.ط)، 2001.

11. دي بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط01، 1418هـ/1998م.

12. روبول، آن و موشلار، جاك، التداولية اليوم؛ علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف الزيتوني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط01، يوليو 2003.

13. الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب؛ مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس (ليبيا)، ط01، مارس 2004.

14. طالب الإبراهيمي، خولة، " قراءة في اللسانيات النصية؛ "مبادئ في اللسانيات النصية" جان ميشال آدام "، مجلة اللغة والأدب، ع 12، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر،ع 12، شعبان 1418هـ/ديسمبر 1997م.

15. عفيفي، أحمد، نحو النص؛ اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط01، 2001.

16. قياس، ليندة، لسانيات النص؛ النظرية والتطبيق "مقامات الهمذاني أنموذجا"، مكتبة الآداب، القاهرة، ط01، 1430هـ/2009م.

17. مبروك، مراد عبد الرحمن، من الصوت إلى النص؛ نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط01، 2002.

18. مفتاح، محمد، التشابه والاختلاف؛ نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، ط01، 1999.

19. نحلة، محمود أحمد، علم اللغة النظامي؛ مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط01، 2008.

- باللغة الأجنبية:

20. Brown, G. & Yule, G., Discourse Analysis, C.U.P., London, 1983.

21. Halliday, M.A.K. & Hasan, Ruqaiya, Cohesion in English, Longman, London, 1976.

22. Maingueneau, D., Les termes clés de l'analyse de discours, édition du seuil, Paris, Février 2002.